ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

ذكرُ رحمة ربِّك عبدَه زكريا: هناك محذوف هنا وهو "هذا"، والتقدير: "هذا ذكرُ رحمةِ ربِّك عبدَه أي زكريا حين نادى ربَّه نداءً خفيًّا.

نادى: ناداه: صاح به. ونادى فلانًا: جالسَه في النادي؛ وقيل: فاخَرَه. ونادى بسرّه: أظهرَه (الأقرب).

التفسير: لقد قلتُ من قبل إن هذه السورة تتحدث عن المسيحية، وتفنّد عقائدها بلفت الأنظار إلى أربع من صفات الله تعالى المذكورة في "كهيعص"؛ الاثنتان منها صفتان أساسيتان، أما الأُخرَيان فهما نتيجة منطقية لهما. والصفتان الأساسيتان هما العالم والصادق، أما الصفتان اللتان هما نتيجتهما الحتمية فهما الكافي والهادي.

ولكن لماذا استهلّ الله تعالى هذه السورة بذكر زكريا عليه السلام، وما الحكمة في الحديث عنه قبل التطرق إلى المسيحية؟ هذه مسألة هامة يجب توضيحها؟

اعلم أن زكريا عليه السلام هذا هو غير زكريا صاحب الكتاب الموجود في التوراة، والذي جاء في عام ٤٨٧ قبل الميلاد. إن زكريا هذا الذي جاء قبيل المسيح عليهما السلام، والذي كفَل أُمَّه، فكان أيضًا نبيًّا بحسب القرآن الكريم، بينما تذكره الأناجيل بصفة كاهن فحسب، وليس كنبيّ. غير أن هناك حديثًا للرسول ﷺ يحل هذه المعضلة حيث قال ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يجدّد لها دينَها" (أبو داود، كتاب الملاحم، باب ما يُذكر في قرن المائة). كما ورد في القرآن الكريم ﴿وعَد الله الذين آمنوا منكم وعمِلوا الصالحاتِ ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلَف الذين مِن قبلهم﴾(النور: ٥٦). فالله تعالى قد شبّه خلفاء الأمة المحمدية، أي المجددين، بأنبياء بني إسرائيل، كما صرح بذلك النبي ﷺ في حديث لـــه: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل" (مكتوبات الإمام الرباني مجلد ١ مكتوب رقم ٢٦٧ صفحة ٣٣٦).. والعلماء الربانيون هنا المجددون. ويبدو أن الكتاب المقدس

كان يسمّي النبيَ الذي يُبعث لتكميل مهمة نبي آخر كاهنًا. ومن جهة أخرى يتضح من القرآن الكريم أن الكفار كانوا يسمون النبي عليه السلام كاهنًا (الطور: ٣٠). فيبدو أن بني إسرائيل كانوا يستخدمون كلمة النبي والكاهن بمعنى واحد، ولكن أهل مكة كانوا يكرهون الكهّان، فاعتبروا النبي ﷺ كاهنًا عندما أعلن دعواه.

ولكن التدبر في التوراة يكشف لنا أن الله تعالى كان يبعث رسله حتى في المناطق الصغيرة جدًّا نظرًا إلى حالة اليهود، حتى بُعث أحيانًا مئات الأنبياء في وقت واحد (الملوك الأول ٢٢: ٦)، بل جاء بعض الأنبياء الكبار في زمن واحد، فإن حزقيال ودانيال وإرمياء * كلهم جاءوا في فترة واحدة، وجاء كل واحد منهم بعد الآخر فورًا، بل في حياة الآخر أيضًا. فلا غرابة إذا لم تسم التوراة زكريا نبيًّا. فما دامت التوراة تعلن أن الله تعالى بعث أحيانًا أربعة مائة نبي في وقت واحد بدون أن تذكر اسم أيٍّ منهم (الملوك الأول ٢٢: ٦)، فثبت أن الأنبياء قد بُعثوا في بني إسرائيل بكثرة بحيث إن التوراة لم تُعْنَ بحفظ أسمائهم أيضًا. أما القرآن الكريم فسجّل أسماء بعض الأنبياء بحسب ما رآه ضروريًّا، وهذا ما فعلته التوراة أيضًا، وليس بوسعنا معرفة غيرهم من الأنبياء ولا أسمائهم.

على كل حال، فزكريا كاهن عند الإنجيل، ولكن القرآن الكريم يسميه نبيًّا، وزكريا عليه السلام المذكور هنا هو ذلك الذي كان كفيلاً لأم المسيح عليه السلام والذي بُعث في زمن قريب جدًّا من ظهور المسيح.

إن السبب الأول لورود اسم زكريا في القرآن قبل الحديث المسهب عن المسيحية هو وجود النبوءة الشائعة بين اليهود أنه لا بد من نـــزول إيليا قبل ظهور المسيح؛ وبما أنه كان من المقدر أن يرزق زكريا ابنَه يحيى الذي كان إرهاصًا* للمسيح.. بمعنى أنه جاء ليمهّد لمجيء المسيح، وبتعبير آخر جاء ليذكّر اليهودَ بمجيء المسيح ويعرّفهم عليه.. فلذلك قد ذكر الله تعالى زكريا قبل الحديث عن المسيح.

---

* بُعث حزقيال عام ٥٩٥، ودانيال عام ٦٠٧، وإرمياء في عام ٦٢٩ قبل الميلاد.

* ورد في "لسان العرب": الإرهاص هو مقدمة الشيء والإيذان به *(المترجم)*.

فإننا نقرأ في التوراة نبوءة ملاخي النبي التالية: "هأنذا أُرسلُ إليكم إيليّا النبيَّ قبل مجيء يوم الرب، اليومِ العظيم والمخوف" (ملاخي ٤: ٥).

علمًا أن المراد من "يوم الرب، اليوم العظيم المخوف" هو مجيء المسيح الناصري، فإنه عليه السلام لما أعلن دعواه سأله اليهود السؤال نفسه وقالوا: أين إيليّا المزمَعُ نـــزوله؟ فأوضح لهم أنه لم يكن المراد من نـــزول إيليا إلا مجيء يوحنا وقال: "وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليّا المزمَعُ أن يأتي" (متى ١١: ١٤).

فبما أن المسيح عليه السلام ما كان ليُبعث ما لم يأت يحيى – الذي يدعى يوحنا في الإنجيل، والذي كان بُروزًا وظلاًّ لإيليّا – فكان لزامًا ذكرُه قبل ذكر ميلاد المسيح عليهما السلام، إشارةً إلى أن نبوءة ملاخي النبي قد تحققت، وأن إيليا الذي نبّأ ملاخيٌّ بنـــزوله قد جاء، وأن المسيح أيضًا قد ظهر.

والسبب الثاني لورود قصة زكريا هنا، بحسب ما يتضح من القرآن الكريم، هو أن مريم كانت سببًا لولادة يحيى عليهما السلام، حيث قال الله تعالى ﴿كلّما دخَل عليها زكريا المحرابَ وجَد عندها رزقًا قال يا مريم أنّى لكِ هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب * هنالك دعا زكريا رَبَّه قال رَبِّ هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذريّةً طيّبةً إنك سميع الدعاء﴾(آل عمران: ٣٨-٣٩). أي أن زكريا الذي كفل مريم، والذي لم يكن قد رُزِق أولادًا بعد، ذهب مرة إلى مكان عبادته، فوجد عند مريم، الصبية الصغيرة في رعايته، طعامًا، فسألها كما يسأل الكبارُ الصغارَ لطفًا ومداعبة: يا ابنتي مِن أين لك هذا الطعام؟ قالت: هو من عند الله.

يقول المفسرون أن الله تعالى كان يُنـــزل لمريم الطعام من السماء (الرازي). ولكن لا ذكر للسماء هنا. إنما الواقع أنها أجابت بهذا الجواب نتيجة التربية الحسنة التي تلقّتْها. فنحن أيضًا نعلّم صغارنا أنه إذا سألهم أحد من أعطاكم هذا الشيء فقولوا: الله تعالى. فلما سمع زكريا من صبية، عمرها ثلاث أو أربع سنوات، أن الله تعالى هو الذي يمنحها كل نعمة، وهو الذي أعطاني هذه النعم كلها، تأثر من جوابها تأثرًا كبيرًا. فقال في نفسه ما دام الله تعالى هو الذي يعطي كل شيء في الواقع، حتى إن هذه البنت الصغيرة أيضًا تدرك ذلك، فما لي، وأنا إنسان عاقل

مجرب، لا أوقن بأن الله تعالى هو الذي يمنح كل شيء. ﴿هنالك دعا زكريا ربَّه﴾.. أي أنه لدى سماع جوابها فكر وقال في نفسه: عندي أيضًا حاجة، لم لا أسأل الله إياها؟ ليس عندي أي أولاد. لو كان عندي ولد مثل مريم، وسألته، أَنَّى لك هذا يا بُنيّ، فقال: هذا من عند الله، لأدخلَ في قلبي السرور كما سرّتني مريم بجوابها.

إذًا فكانت مريم حافزًا دفَع زكريا عليه السلام إلى الدعاء لولادة يحيى، وهكذا فكما أن يحيى بُعث إرهاصًا للمسيح صارت مريمُ والدةُ المسيح - بطريق غير مباشر - إرهاصًا لولادة يحيى، حيث سُمع دعاء زكريا فوُلد عنده يحيى.

لقد قال الله تعالى هنا ﴿ذِكرُ رحمةِ ربِّك عبدَه زكريا﴾ ولم يقل "ذكرُ رحمةِ ربِّك زكريا". ذلك لأن فيه حكمة بالغة سأذكرها لاحقًا. إنه من مزايا القرآن الكريم أنه ينتقي الكلمات بحيث تأتي كل كلمة بحسب الحاجة، ولا تكون زائدة بلا فائدة. ففي هذه الآية أيضًا استخدم القرآن كلمة ﴿ذِكرُ﴾ التي تقديرها "هذا ذِكرُ"، وهي لا تعني سرد واقعة فحسب، بل تعني أيضًا التذكير بها، بمعنى أن الواقعة التي يسردها القرآن هنا تبلغ من الأهمية بحيث يجب أن يتذكرها الجميع ويؤمنوا بعظمة الله وقدرته ﷻ.

ثم قال الله تعالى ﴿رحمةِ ربِّك﴾.. أي أن هذه القصة آيةُ رحمةٍ من ربِّك.

وهنا ينشأ سؤال وهو أن هذه الواقعة كانت دليلاً على رحمة الله بزكريا وعلى ربوبيته لمريم، فلمَ قال الله تعالى ﴿رحمة ربك﴾ بدلاً من أن يقول (رحمة الرب)؟

والجواب أن ضمير الخطاب في ﴿رحمةِ ربِّك﴾ يدل صراحة على أن هذا ذكرٌ لربوبية الله لمحمد ﷺ. ذلك أننا لو أمعنّا النظر لوجدنا أن يحيى كما كان إرهاصًا لعيسى عليهما السلام كان عيسى إرهاصًا لمحمد رسول الله ﷺ. وبيان ذلك أن ولادة المسيح من غير أب كانت إيذانًا بانتهاء الدور الموسوي وابتداء الدور الذي يتحقق فيه الوعد الذي قطعه الله تعالى مع إبراهيم في حق ابنه إسماعيل إذ قال: "ها أنا أباركه وأُثمره وأكثّره كثيرًا جدًّا. اثني عشر رئيسًا يَلِدُ، وأجعله أمّةً كبيرة" (التكوين ١٧: ٢٠، ٢١: ١٨)؛ كما يتحقق فيه الوعد الذي تم على لسان موسى

حيث ورد: "يقيم لك الربُّ إلهُك نبيًّا مِن وسطك مِن إخوتك مثلي. لـــه تسمعون" (التثنية ١٨: ١٥).

فلما كانت واقعة زكريا عليه السلام حلقةً من سلسلة طويلة الحلقات قال الله تعالى هنا ﴿رحمة ربك﴾، ليخبر نبيه محمدًا ﷺ أنه من آيات رحمة ربه أنه تعالى قد بدأ يجهّز الناسَ لتصديقه منذ زمن طويل، إذ خلق يحيى أولاً ليكون إرهاصًا لعيسى، ثم خلق عيسى ليمهّد من أجله.

ثم أضاف الله تعالى هنا كلمة ﴿عبدَه﴾، مع أن الجملة كانت كاملة بدون هذه الزيادة أيضًا! والحكمة في ذلك أن رحمة الله نوعان: رحمة عامة ورحمة خاصة.. أعني أن هناك رحمة تنبع من صفة الله "الرحمن" حيث تشمل المؤمنَ والكافر كليهما؛ وهناك رحمة أخرى مصدرها صفة الله "الرحيم"، وتنـــزل فقط على عباده الذين هم من خدّامه من الطراز الأول جزاءً لهم. وقوله تعالى ﴿رحمةِ ربِّك﴾ لم يكشف ما إذا كانت هذه الرحمة نابعة من مصدر "الرحمانية" أم "الرحيمية"، فجاءت كلمة ﴿عبدَه﴾ لتكشف أن تلك الرحمة ليست من منبع الرحمانية والتي هي عامة وتنـــزل بدون أي عمل ولا خدمة، بل هي من منبع الرحيمية.. أي أنها نـــزلت نتيجة عمل، إذ كان عبدنا زكريا صالحًا وقام بخدمات جسيمة. وهذه المعاني كلها قد بيّنها الله تعالى بإشارات صرفية ونحوية بسيطة.

وقد علِمنا من ذلك أيضًا أن من الداعين من يستحق رحمة الله تعالى ومنهم من لا يستحقها. ولكن صفة الرحمة الإلهية أيضًا لا تتجلى تلقائيًّا، بل لا بد لإثارتها من بعض الأسباب. فتارةً المصائب، وأخرى اضطهاد العدو، ومرّةً عجز الإنسان وعدم حيلته، يُحدث في قلب المرء هيجانًا غير عادي للدعاء الذي يستنـــزل رحمة الله من السماء. وهذا يعني أن صفات الله تعالى إنما تظهر نتيجة بعض الحوافز المعينة. وأما الحافز الذي كان وراء نـــزول رحمة الله على زكريا فقد ذُكر في الآية التالية حيث قال الله تعالى ﴿إذْ نادى ربَّه نداءً خفيًّا﴾.. أي أن نداء زكريا ربَّه هو الذي جلب لـــه الرحمة الإلهية التي لا تنـــزل إلا على الخدام المخلصين.

لقد سبق أن سجلتُ معاني عديدة لكلمة ﴿نادى﴾، ومنها صاحَ به، ولكن هذا المعنى لا ينطبق هنا لأن الله تعالى قد صرح هنا أن هذا النداء كان ﴿نداءً خفيًّا﴾. فلا بد من أن نأخذ معنى آخر وهو أنه باحَ بسرّه لربّه بصوت خفي.

علمًا أن الدعاء نوعان: أولهما الدعاء الذي يُشرك فيه المرءُ الآخرين أيضًا، فيردد لذلك كلماتِ الدعاء بصوت عال؛ والثاني الدعاء الذي يقوم به الإنسان على انفراد، ولا يريد أن يُشرك فيه غيره، فيدعو بصوت خافت حتى لا يسمعه غيره. فيكون مثلاً في حالة اضطرار شديد، فيخاف أن يسمع الناس صوته لو تضرع في الدعاء أمامهم، فيدعو على الانفراد حتى لا يطّلع أحد على اضطرابه وابتهاله. فالله تعالى يخبرنا هنا أن زكريا ﴿نادى ربَّه نداء خفيًّا﴾.. أي دعاه ﷻ بصوت خافت، فلم يحب أن يُشرك غيره في دعائه.

لِمَ لم يرد زكريا عليه السلام أن يُشرك غيرَه في دعائه؟ نعرف سبب ذلك مما ورد في سورة آل عمران، كما نجد هنا أيضًا الإشارة إلى ذلك السبب، وهو أن المرء عندما يعلم، من خلال بعض الإشارات الإلهية، أن الفيض الرباني سينتقل من شعبه إلى غيره فلا بد أن يتألم لهذا الخبر وإن كان هو لا يزال مهبطًا لأنوار الله تعالى. ذلك لأنه لا يريد أن ينتهي هذا الفيض وهذا النور على يده، بل يتمنى أن تتأخر عنه هذه النهاية قليلاً، فلا يكون هو السراج الأخير الذي لا ينـــزل بعده على قومه نور من السماء.

يتضح لنا من سورة آل عمران أنه برؤية الحالة الروحانية العظيمة لمريم عليها السلام تنبه زكريا عليه السلام للخطر القادم، وأدرك أن ذلك الشخص الموعود لبني إسرائيل ربما سيولد من بطنها. فمن ناحية تلقى من الله تعالى إشارات بكفالة مريم ورعايتها. كما أخذت مريم نفسها تأتي، رغم سنّها الصغيرة، بأمور تدل على صلاحها وتقواها وحب الله لها. كما أن الله تعالى بدأ يُظهر لها آيات، وجعَل الناس يعظمّونها لصلاحها وتقواها؛ فكانوا يأتون لها بالهدايا من طعام وثمار وما إلى ذلك. فمن ناحية رأى زكريا أن مريم الصبية زاهدةٌ في الدنيا، وأنها رغم صغر سنها تدرك أن هذه النعم والهدايا إنما هي من عند الله تعالى، ولم تأت إلا نتيجة لفضل الله

ومنّته. فبرؤية هذه الأمور والإمارات كلها أدرك زكريا أن ذلك الموعود الذي تنتهي عليه النبوة من بيت بني إسرائيل سيولد من بطن مريم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان ينظر إلى نبوءات ملاخي والأنبياء الآخرين التي كانت تنذر باقتراب موعد انقطاع النبوة عن بني إسرائيل؛ ففهم زكريا أن فيضان النبوة من بني إسرائيل على وشك الانتهاء. فدعا ربه بالدعاء المذكور في هذه الآيات من القرآن الكريم، وقال: يا رب، كانت لي بُغية لم أزل أربّيها في قلبي منذ زمن طويل، وها إني أبوح لك بسريرة قلبي بعد ما غمرني الحزن العميق بسماع قول مريم هذا.

هذا هو معنى قوله تعالى ﴿إذ نادى ربَّه نداءً خفيًّا﴾. إنه بثّ إلى الله تعالى همّه المكنون وعرض عليه ﷻ أمنيته الغالية التي لم يذكرها لـــه من قبل، وذلك بعد أن تألم قلبه وتهيّجَ للدعاء بسماع قول مريم. مما لا شك فيه أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، ولكن الدعاء الذي يخفيه المرء في نفسه ولا يدعو به يُعتبر سرًّا مكنونًا في المصطلح. وبهذا المعنى نفسه يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام لربه في بيت شعر لـــه ما تعريبه: ربِّ أعطِني ما في قلبي، فلساني لا ينطلق خجلاً وحياءً.

والحق أن من الأماني والمآرب ما يكنّه المرء في نفسه لمدة، ويقول ما الداعي لأن أسأله ربي، ولكن بعد حين يقع حدثٌ يضطر بسببه للبوح برغبته المكنونة أمام ربه ﷻ. فقوله تعالى ﴿نداء خفيًّا﴾ يشير إلى هذا الأمر نفسه حيث قال زكريا عليه السلام يا رب كانت لي أمنيّة لم أزل أكتمها في نفسي من زمان، ولكني لم أعد الآن قادرًا على كتمانها بعد سماع قول مريم هذا، وهي أن ترزقني ابنًا.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝

شرح الكلمات:

وَهَنَ: الوهنُ: ضَعفٌ مِن حيث الخَلق والخُلق (المفردات).

التفسير: إن العظام في الكبر تصبح رِخوةً هشّةً قابلة للانكسار بسرعة، ومن أجل ذلك نجد أن عظم الشباب يُجبَر بسرعة، ولكن عظم الشيوخ لا يقبل الجبر بسهولة. فقول زكريا ﴿ربِّ إني وهن العظم مني﴾ يعني أن عظامه قد ضعفت، فلا يقدر الآن على الصبر والاحتمال لشدة الضعف.

ثم قال ﴿واشتعلَ الرأسُ شيبًا﴾.. ذلك لأن شَعر المرء لا يصاب بالبياض دفعة واحدة، بل عندما يفقد الشعر سواده يميل إلى الاصفرار، ثم إلى البياض، بيد أن ذلك البياض يكون خفيفًا غير بارز. أما إذا أصبح الإنسان شيخًا هرمًا اشتد بياض شعره جدًّا. وعن هذه الحالة نفسها عبّر زكريا عليه السلام بقوله ﴿واشتعل الرأس شيبًا﴾.

أما قوله ﴿ولم أكُنْ بدعائك رَبِّ شقيًّا﴾ فلفظ ﴿بدعائك﴾ يمكن أن يفسر كالآتي: "بدعائي إياك"، والمراد أني لم أر الشقاوة والفشل قط بسبب دعائي إياك، أو بسبب الأدعية التي دعوتك بها.

وبالنظر إلى أن زكريا نبيّ فيمكن تفسير لفظ ﴿بدعائك﴾ بطريق آخر، وهو "بدعائك إياي".. أي لأنك، يا ربِّ، دعوتَني أي خصصتَني بنعمتك وجعلتَني من أنبيائك المقربين الذين تكلّمهم، فلم أر الشقاوة في حياتي، ولم أفشل في مقصدي قط، بل كان النجاح حليفي في جميع مقاصدي دائمًا أبدًا. ذلك أن الشقاوة ضدُّ السعادة، والمراد من السعادة أن تكون نصرة الله حليفةً للإنسان يحرز بها الخير المنشود.

وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٦﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

مَوالِيَ: جمعُ مولى، وهو الصاحب؛ وابن العم (الأقرب). والمراد من الموالي هنا أبناء العم أي الأقارب الشركاء، والمعنى أني أخاف من معاملة الشركاء من بعدي.

عاقرًا: العاقر مَن لا يولد لـــه، ويُستعمل للذكر والأنثى. وأصل العقر الجرح، يقال عقَر النخلةَ: قطَع رأسَها كلَّه مع الجُمّار فيبستْ (الأقرب). ولأن المرأة أو الرجل الذي لا يولد لـــه يجرح أُسرته ويقطع نسلها، فيسمى عاقرًا.

وليًّا: الوليّ: المحبُّ والصديقُ؛ النصيرُ. قال ابن فارس: وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ أحدٍ فهو وليُّه. وقد يُطلَق الوليّ على حافظِ النسبِ (الأقرب).

وقال صاحب المفردات: قوله تعالى ﴿هَبْ لي مِن لدنك وليًّا﴾ أي ابنًا يكون من أوليائك.

التفسير: لقد عبّر زكريا عليه السلام في دعائه هذا عن ضرورته الحقّة. إنه لم يكن من أهل المال والثراء، إنما كان نبيًّا، فما كان يخاف بعده على مال ولا ثروة، بل كان يخاف على تعليمه. لقد كان عليه السلام من عائلة يعمل أفرادها كأحبار، حيث كان أقاربه أيضًا أحبارًا في معبد سليمان في بيت المقدس وغيره من المعابد (لوقا ١: ٥). فقال لربه إن هؤلاء الأقارب قد صاروا متكالبين على الدنيا بحيث لا يحركون ساكنًا لإنقاذ دينهم اليهودية. يبدو أن المناصب الدينية عند اليهود حينذاك أصبحت كالإرث الذي ينتقل من الأب إلى الابن، كما حصل بالمسلمين، فإذا مات واحد من أولياء الله تعالى جعلوا ابنه مكانه مهما كان فاسدًا وغافلاً عن الدين، وإذا لم يكن لـــه ابن فأخاه. فكانت حالتهم كحالة المتصوفة المسلمين اليوم، الذين يُلقَّبون بالأولياء، ولكنهم، من الناحية العملية، بعيدون عن الدين بعد الأرض من السماء.

كان سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يحكي قصة أحد من هؤلاء المتصوفة وكان اسمه "سيد پير". ذات مرة خرج "سيد پير" على صهوة حصان لصيد الغزلان. مع العلم أن الصيد ليس حرامًا كما يظن البعض، لأن النبي ﷺ كان يأمر بالصيد لـــه وإن لم يقم هو بنفسه بالصيد. فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ دعا سعد بن أبي وقاص، وقال لـــه انظُرْ هناك ظبي فارمِه بالسهم. فلما أراد سعد تصويب سهمه إلى الغزال وضع النبي ﷺ خده المبارك على كتفه، وقال: رب اجعل سهمه لا يطيش عن الهدف. فالصيد ليس محظورًا. المهم أن "سيد پير" ركض بحصانه وراء أحد الغزلان،

وكان الغزال قويًّا، فلم يزل يجري ويجري حتى قطع أميالاً عديدة. ولم تكن البنادق إذّاك عند الناس، وإنما كانوا يصيدون بالسهام والرماح. فلم يزل "سيد بير" يركض وراء الغزال حتى ألقاه جريحًا. فنـــزل عن حصانه وهو غضبان، فلما وضَع السكين على الغزال ليذبحه فعوضًا عن أن يكبر أخذ يقول من فرط الغيظ: أيها الخنـــزير، لقد قتلتَ حصاني، لقد أرهقتَ حصاني. فكان غاضبًا على الغزال بسبب هروبه، مع أن كل خائف على حياته لا بد أن يهرب، إنسانًا كان أو حيوانًا.

على أية حال، فكان اليهود مصابين بمرض البُعد عن الدين مثل ما حصل اليوم بالمسلمين، فإذا كان فيهم رجل صالح تبوأ أولاده مكانه مهما كانوا فاسدين وغافلين عن الدين. وإن زكريا عليه السلام يشير في دعائه إلى هذا الأمر نفسه ويقول لربه ﴿وإني خفتُ الموالِيَ من ورائي﴾.. أي أنني يا رب، أخاف أقاربي بعدي لأني أراهم غير مبالين بالدين.

ثم قال ﴿وكانت امرأتي عاقرًا﴾ .. أي أن زوجتي أصبحت غير قادرة على أن تلد. لو كانت شابة، أو لو كنتُ أنا شابًّا، لكانت هناك إمكانية لأن يكون عندنا أولاد. ذلك لأن المرأة الشابة يمكن أن تلد من رجل كبير السن، كما قد تلد المرأة التي قاربت سن الكبر إذا تزوجت من شاب. فيقول زكريا عليه السلام لربه إن الأسباب المادية لولادة الابن غير متوفرة فيّ أنا ولا في زوجتي. ﴿فهَبْ لي من لدنك وليًّا﴾.. أي أعطِني يا رب، بمحض فضلك ولدًا يحفظ أفراد أسرتنا من الضياع ويثبّتهم على الدين. ﴿يرِثني ويرِث مِن آل يعقوب﴾.. أي يرِث ابني هذا مني الحماسَ لخدمة القوم ونصرة الدين، كما يأخذ أيضًا إرثَ المحاسن والصالحات كلها التي وُجدت في بني إسرائيل منذ موسى وهارون وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء. ﴿واجعلْه رَبِّ رضيًّا﴾.. أي اجعَلْه من المقبولين في حضرتك في الآخرة يا ربِّ.

فيا لـــه من دعاء رائع وجامع! ولو أننا بيّنّاه بكلماتنا فهو كالآتي: ربِّ، لقد اضمحلّت قُواي من الداخل، كما قد تشوّهَ منظري أيضًا. بيد أني معتاد على مِننك وألطافك التي لا نهاية لها، فلم أر فشلاً ولا شقاء طيلة حياتي، فصرت بسبب عنايتك أتدلل وأتفاخر بك. إن أقاربي فاسدون ومع ذلك يريدون أن يتبوءوا

منصبي الروحاني. أما زوجتي فغير قادرة لأن تلد. ومع كل هذا جئتك للسؤال. وما أريده منك هو أن تَهَب لي ولدًا، يكون وليًّا لي وشبيهًا بي تمامًا. ولدًا يحيا بعدي، ويحمي أسرتي. ولدًا يتخلق بأخلاقي وأخلاق آل يعقوب.. فلا يخلّد اسمي فقط بل اسم أجداده. ثم لا يكون مقبولاً في الناس فحسب، بل يكون أيضًا مرضيًّا عندك يا رب.

سبحان الله! ما ألطَفَه من دعاء! يقول: لقد فسد جسدي من الداخل، كما تشوه منظري من الخارج. أما زوجتي فأصبحت بلا جدوى. وأما أقاربي فقد عمّهم الفساد. ومع ذلك أسألك أن تعطيني ابنًا. ولا أسألك، رغم شيخوختي، ابنًا عاديًا، بل ابنًا يتحلى بما فيّ وفي أجداده من مزايا ومحاسن، ولا يكون مرضيًّا عندي فحسب، بل يكون مقبولاً ومحبوبًا لديك أيضًا. هذا هو الدعاء الذي دعا به زكريا عليه السلام.

فلا شك أنه عليه السلام كان يعرف، بناء على النبوءات السابقة، أن نور النبوة على وشك أن يُنـــزع من بني إسرائيل، وأن بعثة النبي الذي ستنتهي به النبوة فيهم موشكة، ولكنه فكر أنه قد يكون هناك سبيل لنجاة قومه من الهلاك والدمار، فدعا الله سبحانه وتعالى أن يهب لـــه ابنًا خاصًا – وهو يحيى عليه السلام – ليجهز قومه للإيمان بذلك النبي الموعود لينصروه ويعزّروه كي ينجوا من العذاب الذي ينتظرهم، فيبقى فيهم نور الله، أي النبوة، لمدة أطول.

ويتضح من أحوال يحيى المذكورة في الإنجيل أن الغاية الأساسية لمجيئه إنما هي أن يُعدّ القوم للإيمان بالمسيح عليهما السلام. حيث ورد في الإنجيل قول يحيى: "أنا أعمّدكم بماءٍ للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، ولستُ أهلاً أن أحمل حذاءه. هو سيعمّدكم بالروح القدس ونارٍ" (متى ٣: ١١).

فالأمر الذي ركّز عليه يحيى عليه السلام وبذل جهوده كلها من أجله إنما هو أنه ليس هو الغاية، بل قد جاء هو لنصرة المسيح. كما نجد أن زكريا عليه السلام أيضًا دعا ربه أن يمهّد ابنُه الطريق للنبي الموعود لبني إسرائيل، علّه يتمكن من إقناعهم بتصديق المسيح، حتى يُلغَى العذاب الذي قد اقترب.

هذه هي الخلفية لدعاء زكريا عليه السلام، ولو درسنا المسيحية على ضوئها لم تبقَ المسيحيةُ ذات قيمة. ذلك لأنها تدّعي بأنها الأساس، بينما تؤكد هذه الخلفية أن المسيحية لم تكن إلا آخر لبنة في ذلك البناء. إذ لم تكن الغاية من المسيحية تأسيس دين جديد وشرع جديد، وإنما كانت إيذانًا من الله تعالى بانتهاء نعمة النبوة والوحي والإلهام المستمرة في بني إسرائيل من زمن طويل. لقد حاول زكريا عليه السلام أن يستمر نـــزول هذا النور في قومه لفترة أطول، فدعا ربه ﷻ أن يهب لـــه ولدًا يبذل كل ما في وسعه لكيلا يرفض بنو إسرائيل المسيح. فاستجاب الله دعاءه، وبعث يحيى، الذي لم يدّخر وسعًا في أن يجهز قومه للإيمان بالمسيح، ولكن قدر الله غلَب، وحلّ قضاؤه وحكمه تعالى. فكما حصل في زمن إبراهيم عليه السلام حين جاءه الملائكة – أو الناس بحسب عقيدتنا – بخبر هلاك قرية لوط تألّم إبراهيم من أجلهم جدًّا، فما زال يدعو ربه ﷻ أن لا يعذبهم. ولقد تحمس في الابتهال والإلحاح أن قال: يا رب، "أفتُهلك البارَّ مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارًّا في المدينة؟ أفتُهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًّا الذين فيه. حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تُميت البارَّ مع الأثيم، فيكون البارّ كالأثيم... فقال الربُّ: إنْ وجدتُ في سَدُومَ خمسين بارًّا في المدينة فإني أصفح عن المكان كلِّه من أجلهم. فأجاب إبراهيم وقال: إني قد شرعتُ أكلّم المولى وأنا تراب ورماد. ربما نقَص الخمسون بارًّا خمسةً. أتُهلك كلَّ المدينة بالخمسة؟ فقال: لا أُهلك إن وجدتُ هناك خمسةً وأربعين. فعاد يكلّمه أيضًا وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون؟ فقال: لا أفعل من أجل الأربعين. فقال: لا يسخَط المولى فأتكلم؟ عسى أن يوجد هناك ثلاثون؟ فقال: لا أفعل إنْ وجدتُ هناك ثلاثين. فقال: إني قد شرعت أكلّم المولى، عسى أن يوجد هناك عشرون؟ فقال: لا أهلك من أجل العشرين. فقال: لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط، عسى أن يوجد هناك عشرة؟ فقال: لا أُهلك من أجل العشرة" (التكوين ١٨: ٢٣-٣٢). فسكت إبراهيم على ذلك وفهم أن هذه القرية ستُدمَّر حتمًا.

فترى أن الله تعالى قد أفرحَ إبراهيمَ من جهة، ومن جهة أخرى نفّذ قضاءه أيضًا. فكم كان إبراهيم فرحان في بداية دعائه هذا، حيث فكّر أن الله تعالى قد منّ عليه منّة عظيمة إذ قبِل ابتهاله وبكاءه ووعَده بقبول التماسه، فلن يعذب القوم إذا كان فيهم خمسون من الصالحين. ثم ما زال إبراهيم ينقص العدد إلى أن وصل إلى العشرة، وبعده توقف لسانه تلقائيًّا عن المزيد من الكلام إذ قال في نفسه: ماذا أقول لربي أكثر من ذلك.

وبالمثل كان ما حصل بزكريا عليه السلام، فلما هاجمه الهم والحزن بأن قومه على وشك الهلاك فكر أنه قد أصبح شيخًا هرمًا، ولا يستطيع حمل هذا العبء الثقيل أكثر، فلو أن الله تعالى وهب له ابنًا نبيًّا يمهّد الطريق للشخص الموعود لبني إسرائيل، ويدعو الناسَ إلى الإيمان به، فقد يزول العذاب المحدق بقومه، ويبقى نور النبوة فيهم لفترة أطول. فقال الله لـــه: حسنًا، سنهب لك الابن، وسنجعله نبيًّا أيضًا، ولكن قدرنا يكون هو الغالب، فإن اليهود لن يؤمنوا رغم ذلك، بل سيقتلون ابنك هذا في السجن.

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

غلام: الغلام: الطارُّ الشابُّ؛ أو هو من حين يولَد إلى أن يشبّ، ويُطلَق أيضًا على الكهل (الأقرب). وكأنّ الغلام يطلق على الأدوار الأربعة من الحياة ما عدا الشيخوخة.

سَمِيًّا: السميّ: مَن كان اسمه اسمَك؛ نظيرُك (الأقرب).

التفسير: لقد رأيتم أن الذي دعا كان من المصطفَين الأخيار، فدعا دعاء كاملا، فانظروا الآن إلى المستجيب الذي يملك الكمال كله حيث قال الله تعالى لـــه: يا زكريا، إنا نبشرك بابن سيبلغ الكهولة ولكنه لن يرى الشيخوخة.

أما قول الله تعالى ﴿اسمه يحيى﴾.. فاعلم أن الأولاد لما كانوا يُسمَّون بعد الولادة لا قبلها، فالمراد من هذه الجملة أنه إذا وُلد لك هذا الابن فسمِّه يحيى. وليس المراد منها أن الله تعالى قال لزكريا إن ولدك سيبدأ بترديد "اسمي يحيى" بمجرد أن يولد.

وليكن معلومًا أن القرآن الكريم قد سمى الولد يحيى، ولكن جاء اسمه في النسخة الأردية للكتاب المقدس يوحنا، أما في النسخ العبرية واليونانية والإنجليزية فجاء اسمه كالآتي: yohanan، Joannes، و John.

وإني لا أعلم معنى يوحنا في العبرية، ولكن الاسم العربي "يحيى" له معنى ومغزى ويعني الشخص الذي يعيش. إذًا فكان في قوله تعالى ﴿اسمه يحيى﴾ إشارة إلى أن هذا الولد سيعيش وعليك أن تسميه يحيى. أو المعنى أن هذا الولد صفتُه "يحيى" وسيُكتب لـــه الخلود. ويتضح من القرآن الكريم أن الشهداء يعيشون إلى الأبد، إذًا فكأن في اسم "يحيى" إشارة إلى أن هذا الولد سيُستشهد في سبيل الله تعالى، وينال مقامًا عاليًا في الروحانية بحيث يُكتب له الخلود إلى الأبد. والبديهي أن نبيًّا مثل المسيح لا يمكن أن يموت أبدًا، إذًا فكيف يمكن أن يموت النبي الذي نبوته منوطة بالمسيح. إن المسيح لا يمكن أن يموت لأنه إرهاص لنبي لا يمكن أن يموت أعني نبينَا محمدًا رسول الله ﷺ، وإن يوحنا لا يمكن أن يموت لأنه إرهاص للمسيح الذي لا يمكن أن يموت. وهذا ما قد حصل فعلاً، حيث ترون أن نبينا ﷺ قد أخبرنا أنه قد جاء قبله مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفًا من الرسل (مسند أحمد، باقي مسند الأنصار رقم الحديث ٢١٢٥٧)، ولكنا لا نعرف حتى أسماء مائة منهم. فثبت أن الأنبياء الآخرين قد ماتوا، وأنه ليس بالضرورة أن يعيش كل نبي للأبد، بل إن بعضًا منهم قد كُتب لهم الخلود، وبعضهم قد ماتوا. وكان يحيى عليه السلام من بين الأنبياء الذين كتب لهم الخلود، لأن نبوته منوطة بالمسيح الذي بدوره خالدٌ، لكون نبوته منوطة بمحمد رسول الله ﷺ الذي هو نبي خالد إلى الأبد.

ثم قال الله تعالى ﴿لم نجعَلْ لـــه مِن قبل سميًّا﴾، والسميّ لـــه معنيان: الأول: مَن كان اسمه كاسمك؛ والثاني: مَن كان نظيرَك. لقد ظن المفسرون خطأً أن السميّ هنا جاء بالمعنى الأول، أي لم يوجد قبل يحيى عليه السلام أحد اسمه يحيى (البحر المحيط).

وهذا خطأ. فقد ذكرت التوراة نفسها عدة أشخاص كانوا يُدْعَون يوحنا. فكان أحد أسياد اليهود يسمى يوحنا (الملوك الثاني ٢٥: ٢٣). كما كان أحد أحفاد سليمان عليه السلام يدعى يوحنا (أخبار الأيام الأول ٣: ١٥)، وكان واحد من الذين رجعوا من إيران مع عزرا النبي لتعمير أورشليم يدعى يوحنا (عزرا ٨: ١٢). فمن الخطأ القول أنه لم يوجد أحد بهذا الاسم قبل يحيى عليه السلام مطلقًا، لأنه خلاف الواقع.

والمسيحيون الذين هم دائمًا بالمرصاد للطعن في الإسلام وجدوا في رأي المفسرين هذا فرصة سانحة للاعتراض على القرآن الكريم، فأخرجوا من التوراة أسماء هؤلاء، ثم راحوا يؤيدون اعتراضهم بقولهم أن محمدًا – والعياذ بالله – سمع من بعض القوم شيئًا مما ورد في الإنجيل. فكان مما سمعه أن زكريا صار أبكمَ لا يتكلم قبل ولادة يحيى، فلما جاءه أقاربه في اليوم الثامن ليختنوا ابنه، واقترحوا أن يكون اسمه زكريا مثل أبيه، قالت أم الولد: لا، بل يسمى يوحنا. فقالوا لها: "ليس في عشيرتك أحدٌ تَسمَّى بهذا الاسم". فأشاروا إلى أبيه الأبكم وقالوا: ماذا يريد أن يسمَّى الابن، فطلب لوحًا وكتب قائلا: اسمه يوحنا. وفي الحال انطلق لسان زكريا وتَكلّمَ (انظر لوقا ١: ٥٧-٦٤). فانخدع محمد بقولهم: "ليس في عشيرتك أحدٌ تَسمَّى بهذا الاسم"، حيث لم يستوعبه محمد (ﷺ) جيدًا، فظن أنه لم يوجد في الدنيا من قبل أحد باسم يوحنا مطلقًا، مع أن ما قال الأقارب لزكريا إنما هو أنه لم يوجد في أقاربه أحد بهذا الاسم. فكتب محمد في القرآن أنه لم يوجد في الدنيا أحد بهذا الاسم قبل يوحنا. (تفسير القرآن لـ "ويري")

إن القرآن الكريم لم يقل هذا أبدًا. إن كلمات القرآن واضحة تمامًا، وإنما المفسرون هم الذين أخطأوا في تفسيرهم. إن كل ما أعلنه القرآن الكريم إنما هو ﴿لم نجعَلْ له مِن قبل سمِيًّا﴾.. أي لم نجعل من قبل أحدًا سمِيًّا له. فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل الله تعالى يسمي أولاد الناس أم أن آباءهم هم الذين يسمونهم؟ افحصوا عادات المسيحيين أو الهندوس أو المسلمين؟ الجميع يعرف أن آباءهم هم الذين يسمونهم. ولكن الله تعالى يعلن هنا ﴿لم نجعَلْ له من قبل سمِيًّا﴾.. أي لم نُسمِّ أحدًا يوحنا قبل ذلك. فلو ثبت بعد ذلك وجود آلاف الملايين

من الناس باسم يوحنا في الدنيا قبل يحيى، فلن يقدح ذلك في القرآن الكريم أبدًا؛ ذلك لأن القضية لا تتعلق بوجود أشخاص باسم هذا الاسم قبل يحيى، وإنما السؤال: هل وُجد قبله أحد سماه الله نفسه بهذا الاسم؟ فمثلاً يوجد في بلادنا الملايين الذين أسماؤهم محمد، أو عبد الله، أو عبد الرحمن، أو عبد الرحيم، وكل هؤلاء قد سماهم آباؤهم ولم يسمهم الله تعالى بهذا الاسم. فلو أن الله تعالى قال بعد ذلك لأحد بالإلهام: لقد سمّينا مولودك القادم عبد الرحمن، فسَمِّه به، ولم نسمِّ أحدًا بهذا الاسم من قبل؛ فسمّى هذا ولده عبد الرحمن، فهل يجوز لأحد بعد ذلك أن يقول له: كلا، أنت كاذب، فهناك الملايين الذين اسمهم عبد الرحمن؟ أفلا يقول هذا الأب: إنهم ليسوا كابني، لأنهم قد سماهم آباؤهم، أما ابني فقد سَمَّاه الله بنفسه. فثبت أن لا اعتراض على قول القرآن هذا. إنما يصح الاعتراض لو قال الله تعالى أنه لم يوجد قبل يوحنا أحد دُعي بهذا الاسم. ولكن ما يعلنه القرآن هو أن الله تعالى قال إنه لم يسم أحدًا بذلك الاسم. وهذا صحيح تمامًا، لأن كل أولئك الذين يشير إليهم هؤلاء المسيحيون إنما سماهم آباؤهم، بينما يعلن القرآن الكريم هنا أن الله تعالى هو الذي أطلق ذلك الاسم على ذلك المولود. فلا وجه للاعتراض.

هذا، وإن كلمة "السميّ" تعني النظير أيضًا في اللغة العربية، وعليه فقوله تعالى ﴿لم نجعَلْ لـه مِن قبل سميًّا﴾ يمكن أن يعني: أننا لم نجعل لـه نظيرًا ولا مثيلاً.. أي أن الله تعالى يشير هنا إلى كون يحيى إنسانًا منقطع النظير.

ولو سُئلنا: كيف صار يحيى منقطع النظير؟ ألم يكن موسى نظيرًا لـه؟ لقلنا: إن الإنسان يمكن أن يكون منقطع النظير في مجاله الخاص. فمثلاً نقول: فلان فارسٌ منقطع النظير، وفلان خطاط لا نظير لـه، وإن فلانًا رسام لا مثيل له، وإن فلانًا مفسر عديم المثال. وهذا لا يعني أن الذي هو منقطع النظير في الفروسية هو بالضرورة عديم المثال في الرسم أيضًا؛ أو أن الذي لا نظير لـه في التفسير هو خطاط منقطع النظير أيضًا. فثبت أن كون أحد عديم المثال في مجال ما لا يعني بالضرورة أن يكون منقطع النظير في كل المزايا والمجالات.

تعالوا الآن لنرى المجال الذي فيه كان يحيى عليه السلام عديم النظير.

يكشف لنا التدبر في الأمر أن يحيى عليه السلام هو أول نبي جاء حاملاً اسم نبي آخر وصفاته أعني إلياس عليه السلام؛ أي أنه أول الأنبياء الذين جُعلوا إرهاصًا، إذ لا نجد بين جميع الأنبياء السابقين له أحدًا بُعث إرهاصًا لنبي آخر. أما بعد يحيى فجاء عيسى إرهاصًا لنبينا محمد رسول الله ﷺ. ثم جاء حضرة سيد أحمد البريلوي* إرهاصًا لسيدنا أحمد المسيح الموعود عليه السلام.

إذن فإن قوله تعالى ﴿لم نجعل لـــه سميًّا﴾ يعني أنه تعالى لم يجعل من قبل أحدًا مثيلاً ليحيى، بمعنى أنه أول نبي جاء مثيلاً لنبي آخر. وبالفعل ترون أنه بعد بعثة سيدنا المسيح الموعود عليه السلام لا بد لنا من ذكر اسم يحيى عليه السلام مرة بعد أخرى؛ ذلك لأن الأنباء تؤكد أن المسيح الموعود سينـــزل من السماء، وعندما يسألنا المعارضون أين المسيح المزمع نـــزوله من السماء نرد عليهم ونقول: لقد سُئل المسيح الناصري عليه السلام السؤال نفسه عندما أعلن دعواه حيث قال لـــه القوم: لقد وُعدنا في كتاب ملاخي النبي بنـــزول إيليّا ثانية، وأنه سينـــزل قبل ظهور المسيح، فأين إيليا المزمع نـــزوله؟ فأجاب المسيح: إن يوحنا هو إيليّا، فاقبلوا أو لا تقبلوا (انظر متى ١١: ١٤). كذلك تمامًا لقد بعث الله تعالى في الأمة المحمدية شخصًا آخر باسم المسيح الناصري المزمع نـــزوله من السماء. وهكذا فلا بد لجماعتنا من إحياء اسم يحيى عليه السلام على هذا النحو لأن قضية المشابهةِ لا تنحل إلا بواسطة يحيى.

---

* وُلد حضرة سيد أحمد البريلوي – رحمه الله – عام ١٢٠١ الهجري الموافق عام ١٧٨٦ الميلادي في "رائي بريلي" بالهند. كان من أولياء الله الكبار. خرج، بناء على إشارة سماوية، لمحاربة السيخ الحاكمين الذين منعوا المسلمين من القيام بأداء شعائرهم الدينية، وساموهم سوء العذاب. فدارت بين الفريقين معارك ضارية. وأصيب حضرته في إحدى المعارك بجراح تسببت في استشهاده يوم ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦ الهجري الموافق ٦ مايو ١٨٣١الميلادي. ودُفن في "بالا كوت".

لقد اعتبره سيدنا المسيح الموعود عليه السلام إرهاصًا لـــه ومجددًا للقرن الثالث عشر، وقد انضم بعض مريديه إلى جماعته عليه السلام. *(المترجم)*

باختصار إن قوله تعالى ﴿لم نجعَلْ لـــه من قبل سميًّا﴾ يعني أننا لم نجعل لـــه مثيلاً من قبل. وهذه خصوصية لم توجد في أي نبي قبل يوحنا. فليدلّنا أحد على نبي قبل يوحنا جُعل مثيلاً لإيليا. وما دام اليـــهود والنصـــارى أنفسهم يعتقدون أنه لم يسبق ليحيى عليه السلام مثيل في هذا المجال فثبت صدق القـــرآن الكريم. وإن كون المرء عديم المثال، كما بينتُ، لا يعني كونه عديم المثال في كل مجال، بل يكفيه أن يكون منقطع النظير في مجال واحد. وكما ذكرنا المجال الذي كان يحيى عديم المثال فيه، فقد يكون فيه خصوصيات أخرى أيضًا جعلته منقطع النظير. وإن الإنجيل أيضًا قد أشاد به بسبب تلك الخصوصية نفسها، حيث قال المسيح: "أقـــول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظمَ من يوحنا المعمـــدان" (لوقا ٧: ٢٨).

وهذا يعني أن الإنجيل أيضًا يعدّه منقطع النظير. بيد أن المثال الذي يذكره الإنجيل هنا غلط. إذ يقول: ليس نبيٌّ أعظمَ من يوحنا؟ فمتى كان يوحنا أعظم من موسى مع أنه تابع لـــه؟ وهل كان أعظم من إبراهيم رغم أنه كان تابعًا لـــه أيضًا؟ فثبت جليًّا أن هذا المثال غلط، لأن موسى وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء الكثيرين – عليهم السلام – كانوا أعظم من يوحنا. ولكن القرآن الكريم لم يذكر هذا المثال لبيان خصوصية يحيى، وإنما اكتفى بقوله ﴿لم نجعل لـــه من قبل سميًّا﴾.. أي جعلناه منقطع النظير في مجال ما. في حين أن الإنجيل يزعم أن المسيح قال إن يحيى كان عديم النظير لأنه كان أعظم الرسل. مع أن هذا مخالف لعقيدة المسيحيين أنفسهم.

إذن فقد وجدنا من الإنجيل الدليل على كون يحيى عديم المثال، كما وجدنا البرهان على كون الإنجيل باطلاً مزيفًا. وهذا الأمر يماثل قصة المنافقين في القرآن الكريم، حيث يخبر الله تعالى رسولَه ﷺ أن المنافقين يأتونك فيحلفون لك أنك رسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، ولكن المنافقين كاذبون (المنافقون: ٢). فقد ثبت من هذه الفقرة الإنجيلية – من جهة – أن القرآن الكريم محق في إعلانه بكون يحيى عديم النظير، وأن الإنجيل نفسه يقرّ بذلك، كما ثبت أيضًا أن السبب الذي

ذكره الإنجيل بهذا الصدد يؤكد صدق القرآن وبطلان الإنجيل، لأنه يتنافى مع معتقدات المسيحيين أنفسهم حيث لا يعتقدون بأن يوحنا كان أفضل من جميع الأنبياء والرسل.

أما الآن فأخبركم عن أحوال يوحنا، أي يحيى، كما وردت في الإنجيل.

يقول الإنجيل إن زكريا الكاهن وامرأته أَليصاباتُ كانا عجوزين. وكانت أليصابات عاقرًا، ولم يكن لـــهما ولد. وكانا صالحينِ بارّينِ. وذات يوم ذهب زكريا ليبخّر البخور في الهيكل. فظهر لـــه ملاك، وقال لـــه: "لا تَخَفْ يا زكريا لأن طِلْبَتَك قد سُمِعتْ، وامرأتُك أليصاباتُ ستلد لك ابنًا، وتسمّيه يوحنا. ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب. ومِن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس. ويردّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدم أمامه بروحِ إيليّا وقوّته" (لوقا ١: ٥-١٧).

ثم ورد أن هذا الملاك هو جبريل، وأن زكريا شك في قول الملاك، فصار أبكمَ لا يتكلم إلى أن وُلد يوحنا وتم ختانه.. أي ظل زكريا بدون كلام قرابةَ عشرة شهور.

وهذا الأمر يخالف بيان القرآن الكريم، والبديهي أن ما يقول القرآن هو الأقرب إلى الصواب لكونه لائقًا بمكانة زكريا الذي كان نبيًّا، أما ما يذكره الإنجيل فلا يليق بمكانة نبي.

وثمة فروق أخرى بين بيان الإنجيل وبيان القرآن الكريم، وهي:

الأول: يقول القرآن إن الحافز الذي دفع زكريا عليه السلام للدعاء هو ذلك الكلام البريء الذي تكلمت به مريم. ولكن الإنجيل ساكتٌ بهذا الصدد، غير أن سكوته لا يرادف إنكارَه لهذه الواقعة. إذ ذكر في سياق تلقّي زكريا بشارةَ الابن أنه كان يدعو الله تعالى من أجل الابن، حيث ورد أن الملاك قال لـــه إن "طِلْبَتَك قد سُمِعتْ" (لوقا ١: ١٣). بيد أن الإنجيل لم يذكر الحافز على هذا الدعاء. أما القرآن فقد بدأ هذه القصة بذكر هذا الأمر نفسه وقال إن زكريا لما تكلم مع مريم الصبية امتلأ قلبُه حماسًا للدعاء بسماع كلامها البريء، فدعا ربه من أجل الابن (آل

عمران: ٣٨-٣٩). وهذا يعني أن الإنجيل لم يذكر الحافز الأساسي للحدث، وإنما ذكر الجزء الأخير منه، وهذا دليل على نقص الإنجيل.

ودليلنا على صحة بيان القرآن هو أن يحيى وُلد عند زكريا في أواخر عمره، وهذا باعتراف الإنجيل نفسه، إذ ورد فيه أن الملاك لما بشّره بالولد قال: "كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها" (لوقا ١: ١٩). والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا لم يقم زكريا بهذا الدعاء من قبل؟ إن دعاءه في أواخر عمره لدليل واضح أنه كان وراء دعائه حافز جديد، وما هو إلا أن مريم كانت قد وُلدت في تلك الأيام من عمره، فكان كلامها البريء هو الحافز الجديد الدافع لـــه إلى الدعاء. إن هذه القرينة لدليل على أن بيان القرآن هو الصحيح.

بيد أن هذا الفرق بين المصدرين ليس باختلاف ذي بال، إذ ليس مثله إلا كمثل شخص يقول عن حدث ما أنه قد حصل في الصباح، بينما يقول غيره إنه قد وقع في الساعة العاشرة صباحًا، والعاقل لن يرى في ذلك اختلافًا حقيقيًا. إنما يكون الاختلاف إذا ثبت التعارض والتناقض في البيانين. إن كلمات الإنجيل "إن طِلبتَك قد سُمعت" تدل على أنه بدأ سرد القصة من استجابة دعاء زكريا، بينما بدأ سردها القرآن الكريم بالأحداث التي سبقت الدعاء. فسكوت الإنجيل عن تلك الأحداث السابقة دليل أنه لم يذكر ذلك الحافز للدعاء؛ وهذا يدل على كون بيانه ناقصًا، ولكن بيان القرآن خال من هذا العيب.

الثاني: يقول الإنجيل إن الملاك هو الذي بشّر زكريا بالولد، أما القرآن فيخبر أن الله تعالى هو الذي بشره به. ولكن هذا ليس اختلافًا في الحقيقة، لأن الملائكة هي التي تأتي برسالات الله عادةً، ولأنها لا تتكلم بالغيب من عندها، وإلا لزم اعتبارها آلهةً. فلو سلّمنا أن الملاك هو الذي قد بشره بالابن فإنما بشره من عند الله تعالى. لذا فيمكننا أن نقول إن الملاك قال كذا، كما يجوز لنا أن نقول إن الله تعالى قال كذا. فإذا كان الإنجيل يخبرنا أن الملاك قال لـــه إن "طلبتَك سُمعتْ" فهذا يعني أن الله تعالى أخبر الملاك أنه قد استجاب دعاء زكريا. فكَان قول الملاك نيابة عن الله تعالى. ومثاله كمثل شخص يرى ثمرة المانجو في المنام، وتعبيره أنه سيُرزق ابنًا؛ ثم

بعد فترة يُرزق ابنًا بالفعل، فيقول للناس: لقد أخبرني الله تعالى سلفًا بولادة الابن عندي؛ فهل من عاقل في الدنيا يقول لـــه: إنك كاذب؛ متى أخبرك الله بذلك، إنما رأيت في المنام المانجو فحسب. وكل من يقول مثل هذا الكلام سيعتبره القوم مجنونًا، إذ كان الرجل قد أُخبر بذلك من عند الله تعالى ولو على شكل رؤية المانجو في الرؤيا.

فيمكننا القول إن الملاك أخبر زكريا بولادة الابن، كما يمكننا القول إن الله تعالى أخبره به؛ لأن الملائكة لا تبشّر من عندها وإنما من عند الله تعالى. وهذا هو الثابت في موضع آخر من القرآن الكريم حيث سرد الله الحدث نفسه وقال ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى﴾(آل عمران: ٤٠). فترى أن هذه الآية لا تذكر كلام الله تعالى مع زكريا، بل كلام الملائكة معه. فثبت أن ما ورد في سورة مريم بأن الله تعالى قال لزكريا لا يعني أنه تعالى كلّمه مباشرة، بل المراد أنه تعالى كلّمه من خلال الملائكة أي سيّدِهم جبريل كما صرّح بذلك في سورة آل عمران. فليس هنا أي اختلاف، بل هو مزيد من الشرح اللطيف، حيث بين الله تعالى أن كلام الملاك إنما هو كلامه تعالى في الواقع. فيمكن أن نقول إن الله قال كذا، كما يمكن تمامًا القول إن الملاك قال كذا.

علمًا أن القسيس "ويري" قد اعترض على هذه الآية من سورة آل عمران قائلا: إن العقلية المسلمة عجيبة، ففي حين يقول الإنجيل إن جبريل هو الذي ظهر لزكريا، يزعم القرآن أن الملائكة هي التي نادته؛ ومع ذلك يعتبره المسلمون اختلافًا بسيطًا! (تفسير القرآن لـــ"ويري" مجلد ٢ ص ١٦)

وهذا يعني أن "ويري" يقول ساخرًا بالمسلمين إن الاختلاف بين بيان القرآن والإنجيل اختلاف كبير، ولكن هؤلاء السذج لا يدركون ذلك.

والحق، كما بيّنتُ، أن لا فرق بين أن يقال إن الملائكة قالت كذا، وبين أن يقال إن الملاك قال كذا. ذلك أن القرآن الكريم يخبرنا أن الله تعالى كلما أنـــزل وحيًا هامًّا بعث معه كثيرًا من الملائكة. يقول الله تعالى ﴿عالِمُ الغيبِ فلا يُظهِر على غيبه أحدًا * إلا مَن ارتضى مِن رسول فإنه يسلُك مِن بين يديه ومِن خلفه

رصَدًا * ليعلمَ أن قد أبلغوا رسالاتِ ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلَّ شيء عددًا﴾(الجن: ٢٧-٢٩).. أي أن الله تعالى عالِمُ الغيب، ولا يُطلِع على غيبه بكثرة أحدًا إلا رسله. كما أن الغيب الذي ينـــزل من عنده يأتي معه كثير من الملائكة لحراسته.

إن هذه الآية تخبرنا أن الله تعالى إذا أنـــزل وحيًا ذا أهمية خاصة مع ملاك بعث معه ملائكة أخرى تحرس ذلك الوحي. فلا حرج إذا قلنا إن ملاكًا نـــزل لأن الذي يتكلم بذلك الوحي هو أحد الملائكة، ولا بأس أيضًا لو قلنا إن الملائكة تكلمت بذلك الوحي لأن الكثير من الملائكة تنـــزل معه. مِن هنا فإذا قال الله تعالى في القرآن ﴿فنادتْه الملائكة﴾ فالمراد أن ذلك الوحي كان وحيًا ذا أهمية خاصة، فأرسل معه ملائكة كثيرة؛ وإذا قال الإنجيل إن ملاكًا بشر زكريا بالولد فلا حرج في ذلك أيضًا، إذ لم يتكلم بالوحي إلا ملاك واحد نيابة عن الجميع. ومثله كمثل وفد من الناس يزور الحاكم أو الوزير، فيقول رجال الصحافة إن الوفد قال للوالي كذا وكذا، مع أن كل الوفد لا يتكلم إنما يتحدث أحدهم نيابة عن الجميع. يتضمن الوفد سبعة أو ثمانية أفراد مثلاً، ولكن لا يتكلم إلا واحد منهم. ولو أن الجميع شرعوا يتكلمون دفعة واحدة فإن الحاكم سيطردهم جميعًا لجهلهم بآداب الكلام. الغريب أن هؤلاء الأوروبيين يعرفون جيدًا هذا الأدب البسيط للقاء الوفود، ويراعونه في لقاءاتهم كل يوم، ولكنهم حين يقرءون شيئًا مماثلاً لـــه في القرآن الكريم يسخرون ويستهزءون. ونعم ما قال الشاعر بالفارسية:

اين گناهيست كه در شهر شما نيز كنند

أي أن هذه الجريمة تُرتكب في بلدتكم أيضًا. ونحن أيضًا نقول لهؤلاء المعترضين إنكم أنفسكم تتبعون هذا الأسلوب القرآني في لقاءاتكم صباحًا ومساء، فلِم الاعتراض إذن؟

ثم إننا نجد أمثلة هذا الأسلوب في الكتاب المقدس أيضًا، حيث ورد عن إبراهيم عليه السلام:

"وظهر لـــه الرب عند بَلُّوطات مَمْرَا وهو جالس في باب الخيمة وقتَ حر النهار. فرفَع عينيه ونظر، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظَر ركضَ لاستقبالهم من باب الخيمة، وسجد إلى الأرض، وقال: يا سيدُ، إن كنتُ قد وجدتُ نعمةً في عينيك فلا تتجاوزْ عبدَك. ليؤخَذْ قليلُ ماء، واغسلوا أرجلَكم، واتّكئوا تحت الشجرة؛ فآخُذَ كسرةَ خبزٍ، فتُسندون قلوبَكم ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا: هكذا تفعل كما تكلمتَ.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارَةَ وقال: أسرِعي بثلاث كَيلات دقيقًا سميذًا. اعْجُني واصنَعي خبزَ مَلّة. ثم ركَض إبراهيم إلى البقر، وأخذَ عجلاً رَخْصًا وجيّدًا وأعطاه للغلام، فأسرع ليعمَله. ثم أخذ زُبدًا ولبنًا والعِجلَ الذي عمِله ووضَعها قُدّامَهم. وإذ كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا.

وقالوا لـــه أين سارةُ امرأتُك؟ فقال: ها هي في الخيمة. فقال: إني أرجِع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتِك ابنٌ. وكانت سارة سامعةً في باب الخيمة وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخينِ متقدمينِ في الأيام، وقد انقطع أن يكون لسارة عادةٌ كالنساء. فضحكت سارة في باطنها قائلةً: أَبَعْدَ فنائي يكون لي تنعُّمٌ وسيدي قد شاخَ. فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكتْ سارة قائلة: أَفَبالحقيقة أَلِدُ وأنا قد شخْتُ؟ هل يستحيل على الرب شيء؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابنٌ. فأنكرتْ سارةُ قائلة: لم أضحك، لأنها خافت. فقال: لا، بل ضحكتِ" (التكوين ١٨: ١-١٥).

فالتوراة تخبرنا هنا أن إبراهيم رأى الله تعالى، ثم تقول إن ثلاثة من الرجال – بدلاً من إلهٍ واحد – شرعوا يتكلمون مع إبراهيم، ثم أكلوا طعامه أيضًا. ثم يغيب الثلاثة كلهم ويتحول الحديث عن الثلاثة إلى الواحد، كما يتغيَّر الضمير من الغائب إلى المتكلم حيث ورد: " فقال: إني أرجِع إليك نحو زمان الحياة (أي في فصل الربيع)، ويكون لسارة امرأتِك ابنٌ". ثم بعد ذلك تقول التوراة إن الله تعالى هو الذي تكلم مع إبراهيم حيث ورد: "فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكتْ سارة؟" ومع ذلك لا يجد المسيحيون في هذا الكلام أي غرابة، ولكنهم يستغربون

ويسخرون من القرآن الكريم إذا قال إن الملائكة هم الذين بشروا زكريا بالابن؛ مع أنه ليس ثمة اختلاف ولا غرابة في ذلك مطلقًا، كما بينتُ بالتفصيل. إن الإنجيل يخبر أن ملاكًا واحدًا جاء يبشر زكريا بالابن، ونعرف من القرآن الكريم أن الله تعالى يبعث ملائكة كثيرة مع كل وحي ذي أهمية خاصة؛ فلا يمكن أن نخطئ الإنجيل، بل إن بيانه صواب، كما أن بيان القرآن الكريم صدق وحق أيضًا.

الثالث: ورد في الإنجيل أن يوحنا كان إرهاصًا للمسيح عليهما السلام، ولكن القرآن الكريم لا يذكر ذلك. وهذا الأمر أيضًا من الاختلافات التي يثيرها المسيحيون.

والجواب أن القرآن الكريم لم يذكر هذا الأمر هنا في سورة مريم، ولكنه يقول في وصف يحيى في سورة آل عمران ﴿مصدِّقًا بكلمة من الله﴾(الآية: ٤٠). فليس ثمة اختلاف في الحقيقة. ذلك أن الإنجيل ينبئ أن يوحنا سيسير أمام المسيح بروح إيليّا وقوته (لوقا ١: ١٧)، ويقول القرآن الكريم أنه سيحقق بمجيئه نبوءة وردت في الصحف السابقة. والظاهر أن سرد قصة ما كاملةً في موضع واحد ليس ضروريًّا، فإن الكتاب المقدس أيضًا قد ذكر جزءًا في مكان وآخرَ في مكان آخر.

الرابع: ورد في القرآن الكريم أن زكريا أُعطيَ آيةَ عدم الكلام ثلاثة أيام – سواء أكان توقّفَ عن الكلام قصدًا، أم أن الله تعالى جعل لسانه لا ينطق – بينما يقول الإنجيل إن لسانه توقف عن الكلام عقابًا من الله تعالى، فظل أبكمَ منذ تلقى البشارة إلى أن وُلد يحيى وجاء يوم ختانه، فسئل عن اسم الولد، فكتب على لوح أن اسمه يحيى، فانفتح لسانه وتكلم (لوقا ١: ٢٠ و٥٧-٦٤).

لا شك أن ثمة اختلاف في بيان القرآن الكريم والإنجيل، وعلى المرء أن يسائل عقله وضميره ليعرف أي البيانين حقٌّ وصدق. فهناك كاهن بحسب الإنجيل – والكاهن يماثل المحدَّث عندنا نحن المسلمين – يمنحه الله تعالى الإنعام الإبراهيمي، أعني أن إبراهيم عليه السلام كما وُعد في شيخوخته بابن من عند الله تعالى كذلك وُعد زكريا العجوز بابن كان موعودًا من قِبل جميع الأنبياء في رأي المسيح، وكانت ولادته ضروريّة وإلا لم يأت المسيح أيضًا؛ ومع ذلك عندما قال زكريا: أنّى يكون

لي ولد وأنا شيخ عجوز وامرأتي عاقر، عاقبه الله تعالى بعذاب، وصيّره أبكم لا يتكلم حوالي عشرة أشهر. وذلك بالرغم أن الفعل نفسه قد صدر عن سارة زوجة إبراهيم، حيث ورد: "فضحكت سارة في باطنها قائلةً: أَبَعْدَ فنائي يكون لي تنعُّمٌ وسيدي قد شاخ" (التكوين ١٨: ١٢)، ولكن ما نـــزل بها أي عذاب، و لم يجعلها الله تعالى بكماء ليوم واحد. إذا كان هذا الفعل جناية كان لزامًا أن تعاقَب عليه سارة أيضًا كما عوقب زكريا للسبب نفسه بالبكم لعشرة أشهر.

ثم يتضح من الإنجيل أن زكريا ما قال ذلك إنكارًا، بل عجبًا واستغرابًا من قدرة الله تعالى بدليل قول الملاك: "لا تَخَفْ يا زكريا لأن طِلْبَتَك قد سُمعتْ"(لوقا ١: ١٣).. أي أن دعاءك قد استُجيب. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل صار زكريا وزوجته عجوزين في ذلك اليوم بالتحديد؟ لا بد أنهما قد شاخا قبل ذلك بفترة. فإذا كانت ولادة الابن أمرًا مستحيلاً في رأي زكريا فلماذا دعا إذًا من أجل الابن؟ إن دعاءه هذا، ثم قول الملاك هذا، يؤكدان إيمانَه بأن الله قادر كل القدرة على أن يهب له الولد. كان زكريا يدرك أنه عجوز، وأن زوجته أيضًا عجوز، ولكنه على يقين أن الله تعالى يملك القدرة المُطْلقة، ومن أجل ذلك كان يواظب على الدعاء من أجل الابن. فلما تلقى الخبر باستجابة دعائه هذا استولت عليه الحيرة وقال في نفسه مستغربًا: سبحان الله، كيف استُجيب هذا الدعاء غير العادي؟ ولكنه لم يكن منكرًا لقدرة الله على ذلك. والبديهي أن العقاب إنما ينـــزل بالمنكِر المتردد، أما المتحير المستغرب فلا يعاقَب، بل يعطى الصلات والجوائز.

إذن فإن هذه الشهادة من الإنجيل نفسه لتدعم بيان القرآن الكريم بأن زكريا طلب من الله تعالى آية على ولادة الابن، ولكنه لم ينكر قدرة الله. فثبت أن الإنجيل قد أخطأ حين قال أن زكريا عوقب، فظل أبكمَ لا يقدر على الكلام قرابة عشرة أشهر، وأن القرآن كان على حق حين قال إن سكوت زكريا استمر ثلاثة أيام فقط، وأن هذا السكوت لم يكن عقابًا من الله تعالى، وإنما لكي يذكر الله تعالى في تلك الأيام بكثرة. يقول الله تعالى ﴿آيتُك ألّا تكلّم الناسَ ثلاثة أيام إلا رمزًا واذكُرْ ربَّك كثيرًا وسبِّحْ بالعشيّ والإبكار﴾(آل عمران: ٤٢). أي أن زكريا مُنع من

الحديث مع الناس في تلك الأيام حتى يذكر الله فيها كثيرًا، من غير أن يكون به أي عيب ولا مرض كالعي والخرس كما اتهمه الإنجيل. ومن أجل ذلك قال الله تعالى ﴿آيتك ألا تكلّم الناسَ ثلاثَ ليالٍ سويًّا﴾(مريم: ١١).. أي أن علامة ذلك أنك لن تتكلم ثلاث ليال، ولكنك تكونُ ﴿سويًّا﴾ أي بريئًا من أي مرض وعيب. فما أصدقَ ما يقوله القرآن الكريم! فإن الله تعالى لما استجاب دعاء زكريا قال: دَعْني يا رب أشكرك الآن. قال: فاعتكِفْ في المسجد ثلاثة أيام منشغلاً بذكري، وهذا سيكون آية على شكرك لي. أما ما يقوله الإنجيل فغلطٌ عقلاً ونقلاً.

واعلم أن هناك فرقًا بيّنًا بين القرآن الكريم والكتاب المقدس. ذلك أن الكتاب المقدس يتجاسر دائمًا على اتهام الأنبياء، أما القرآن الكريم فيبرئ ساحتهم من كل تهمة من هذه التهم. فمثلا، يزعم الكتاب المقدس أن هارون وقع في الشرك (الخروج ٣٢: ١-٦)، ويقول القرآن الكريم إنه لم يقع في الشرك قط (طه: ٩١). ويزعم الكتاب المقدس أن زكريا أنكر قدرة الله تعالى فعوقب (لوقا ١: ٢٠-٢١)، ويقول القرآن الكريم إنه لما تلقى الوعد من الله تعالى التمس منه تعالى أن يأمره بشيء يقوم به شكرًا لـــه ﷻ، فأمره الله تعالى أن يصوم صوم السكوت ثلاثة أيام منشغلاً بذكر الله تعالى، ولكن هذا لم يكن عقابًا ولا مرضًا. ويزعم الكتاب المقدس أن سليمان عليه السلام كان مجرمًا مستهترًا وغافلاً عن الدين (الملوك الأول ١١: ١-٦)، ولكن القرآن الكريم يعدّه مؤمنًا صالحًا بارًّا (سورة ص: ٣١).

فما أعظمَه من برهانٍ على صدق التاريخ المذكور في القرآن الكريم، وعلى زيف روايات الكتاب المقدس. إذا كان الأنبياء عباد الله الأخيار فصدور هذه المعاصي منهم محال، وإذا لم يكونوا من الأبرار الأخيار فذكرُهم بصفتهم أنبياء سخف وحماقة. إن التصرفات التي يعزوها الكتاب المقدس إلى أنبياء الله تعالى لو نُسبت إلى عامة المسيحيين أو القسيسين لثاروا للشجار والقتال، ولكنهم يسلّمون بها بكل جسارة في حق أنبياء الله الأطهار!

الخامس: ورد في الإنجيل أن مريم لما حملتْ وذهبتْ لزيارة أم يوحنا، امتلأت أم يوحنا بالروح القدس فقالت: "فمِن أين لي هذا أنْ تأتيَ أُمُّ ربي إليّ. فهوذا حين

صار صوتُ سلامكِ في أذنيّ ارتكض الجنينُ بابتهاج في بطني" (لوقا ١: ٤٣-٤٤). ولكن القرآن الكريم يقول في صفة يحيى ﴿وآتيناه الحُكمَ صبيًّا﴾ (مريم: ١٣)، ويقول إنه كان ﴿سيِّدًا وحَصورًا﴾(آل عمران: ٤٠).. أي أن الله تعالى قد منحه منذ صغره القوة الروحانية والحكمة الروحانية والحكومة الروحانية، وأنه كان سيدًا وبريئًا من كل عيب ومنقصة.

فالمسيحيون يقولون إن كتابهم يعدّ يحيى عبدًا للمسيح، فكيف يعدّه القرآن سيدًا وأنه قد أُعطي السيادة منذ نعومة أظفاره؟

والرد على قولهم هذا هو أن فقرات أخرى من الإنجيل تؤكد أن الإنجيلي لوقا قد زاد هذا القول من عنده في إنجيله على سبيل المبالغة فحسب، إذ لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة. لو كان يحيى مجرد خادم للمسيح، كما يزعم لوقا، فما الذي دفع المسيح ليكون تلميذًا ليحيى؟ إن كتّاب الأناجيل قد ظلموا هنا سيدهم المسيح ظلمًا عظيمًا في محاولتهم لأن يرفعوه أكثر من مكانته الحقيقية. فمثلاً يقول متّى في إنجيله إن المسيح جاء إلى يوحنا ليتعمد منه، ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ؟ (متى ٣: ١٣-١٤).. أي أنك يا سيدي وأستاذي وأنا تلميذك، فكيف أعمّدك؟ ثم نسبوا إلى المسيح أنه قال ليوحنا: "اسمحِ الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمّل كل برٍّ" (المرجع السابق: ١٥).. أي صحيح أنني أعظم منك، ولكن ما دام الأنبياء قد تنبأوا بذلك فلا بد لنا أن نحقق نبأهم. كم هو غير معقول هذا الجواب! ذلك أن المسيح إذا كان أسمى من أن يكون تلميذًا ليوحنا فلماذا تنبأ الأنبياء بذلك أصلاً، ولماذا قدر الله تعالى هكذا. أليس غريبًا أن المسيح يذهب إلى يوحنا ليبايع على يده، ولكن يوحنا يقول لـــه: كيف آخذ منك البيعة وأنت أعظم مني؟ فيجيبـــه المسيح: لقد أخطأ الأنبياء إذ تنبأوا بأنك ستعمدني. لا شك أنني أعظم منك ولكن ماذا نفعل الآن؟ علينا أن نعمل كما قالوا.

إن هذه القصة تشابه ما يعتقد به بعض الشيعة بأن رسول الله ﷺ لما ذهب للقاء الله تعالى ليلة المعراج، وجرى بينهما الحوار، قال النبي ﷺ: سيدي، قد جئت لزيارتك من مسافة طويلة، فأرجوك ألا تحرمني من رؤية وجهك؟ فكشف الله تعالى

عن الحجاب فإذا بعليّ ﷺ جالسٌ أمام النبي ﷺ! فقال ﷺ: سيدي، لقد كبّدتَني عناء هذا السفر الطويل عبثًا، فإني أرى هذا الوجه يوميًّا على الأرض. فقال الله تعالى: هناك سرٌّ في ذلك أيضًا.

يبدو أن هناك سرًّا كامنًا كهذا في قصة يوحنا أيضًا، حيث يذهب إليه المسيحُ ليضمّه إلى مريديه، فيقول لـــه يوحنا: كلا، ثم كلا. ما كان لي أن آخذ البيعة من سيدي، فيجيبه المسيح: صحيح أنني أنا السيد، ولكن هكذا خرج من فم الأنبياء فلا بد من تحقيق كلامهم. فيا له من كلام سخيف!

وإن مرقس أيضًا قد حاول في إنجيله أن يسبغ على هذا الحدث الطابع نفسه، وإن لم يذكر فيه الحوار المذكور في إنجيل لوقا.

ثم إن لوقا أيضًا لم يذكر هذا الحوار، بيد أنه ذكر قصة تتلمذ المسيح على يد يوحنا.

أما يوحنا فلم يذكر في إنجيله أصلاً أن المسيح قد تعمد على يد يوحنا. ولكن هذا لن يجديه شيئًا، لأن الأناجيل الثلاثة تنصّ على أن يوحنا قد عمّد المسيح، أي صار أستاذًا لـــه.

لا شك أن المسيح قد صار أعظم من يوحنا درجة، ولكنه صار أعظم منه فيما بعد، أما قبل ذلك فكان تلميذًا ليوحنا. شأنه شأن كثير من التلامذة الذين يسبقون أساتذتهم فيما بعد. فأحيانًا يكون الأستاذ لم يكمل الثانوية مثلا، ولكن التلميذ يحصل على درجة الماجستير؛ بيد أن هذا لا يجيز للأستاذ أن يرفض تعليم تلميذه في الابتدائية بحجة إنه سيكون أعظم منه. لا شك أنه سيسبق أستاذه حينما يكمل الماجستير، ولكنه لا يمكن أن ينكر أنه كان تلميذًا لـــه.

إذن فمن الخطأ والعبث القول أن يوحنا، وهو في بطن أمه، قد اعترف بعظمة المسيح. إذا كان الأمر كما يقولون فلماذا أمره الله تعالى أن يعمّد المسيحَ.

علمًا أن القسيس "ويري" قد استشاط غضبًا على قول الله تعالى في القرآن ﴿ومصدِّقًا بكلمة من الله﴾، فقال كيف اعتبر القرآن يوحنا مصدقًا للمسيح مع أنه أدنى منه شأنًا (تفسير القرآن لـــ"ويري" مجلد ٢ ص ١٦-١٧). والحق أن قول

القسيس "ويري" هذا إنما يدل على غبائه هو، لأن الإنجيل نفسه يؤكد ما قاله القرآن.. أي كان يوحنا إرهاصًا للمسيح عليهما السلام.

السادس: يقول القرآن الكريم إن الرزق كان يأتي مريمَ بكرةً وعشيًّا، ولكن الإنجيل لم يذكر ذلك. وهذا الاختلاف ليس بشيء. إن حب الناس للصغار شيء طبيعي. أما إذا كان الأطفال ممن قد نذرهم آباؤهم في سبيل الله تعالى فيبدون نحوهم مزيد الحب وكبير الاحترام، كما يُهْدونهم الهدايا لمعرفتهم بمكانتهم السامية. أما الذين يجهلون المقام السامي لهؤلاء الأولاد فيعطونهم الصدقات. فكان القوم يأتون مريم بشتى الهدايا حبًّا واحترامًا لها. وقد سجل ميور وآرنولد أيضًا في كتبهما روايات مسيحية بهذا المعنى، وقدموها كمعجزة للمسيح (المرجع السابق).

بيد أن هذا لا يعني أن نصدق القصص التي ذكرها المفسرون بهذا الصدد. فمثلا قالوا أن زكريا لما رأى الطعام عند مريم شكّ في أمرها، وظن أن أحد الأشرار يأتيها بالطعام، فكان زكريا يغلق عليها غرفتها، ثم يغلق عليها سبعة أبواب أخرى، ومع ذلك كان يجد عندها رزقًا (الرازي، والميزان في تفسير القرآن للطباطبائي). ويبدو أن المفسرين مولعون جدًّا بسبعة أبواب. فإذا كان الرزق يأتي عند مريم فمن وراء سبعة أبواب، وإذا كانت زليخا تراود يوسف عليه السلام عن نفسه فمن وراء سبعة أبواب أيضًا (الرازي)! مع أن كل ما ذكره القرآن الكريم إنما هو أن زكريا لما وجد عند مريم طعامًا، قال: من آتاك هذا؟ قالت: الله تعالى. فتأثر من الجواب الجميل من صبية بريئة، فدعا ربه وقال: ربِّ أعطني أنا أيضًا ابنًا متحلِّيًا بالكمال الروحاني. وكما أسلفت، فإن الروايات اليهودية أيضًا تدعم هذا البيان، كما اعترف بذلك وليام ميور وأورنولد في كتبهما.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

عتيًّا: عتا يعتو عتيًّا: جاوز الحد. والعَتيّ العاتي. وقال الإمام الراغب في قوله تعالى ﴿وقد بلَغتُ من الكبر عتيًّا﴾.. "أي حالة لا سبيلَ إلى إصلاحها ومداواتها".

التفسير: أي لما تلقى زكريا عليه السلام من الله تعالى البشارة بالولد قال: كيف يمكن أن يكون لي ابن وزوجتي عقيم وقد بلغتُ من الشيخوخة الحد الأقصى؟

ولقد انطوت كلمة ﴿غلام﴾ على البشارة إلى الأمور التالية: الأول أن المولود سيكون ذَكرًا، والثاني أنه سيبلغ سن الكهولة، والثالث أن زكريا سيرى الأيام السارّة من حياة ابنه. فدُهش زكريا عليه السلام من عظمة البشارة وقال مستغربًا: لقد أصبحتُ شيخًا هرمًا، وزوجتي عقيم لا تلد، ومع ذلك يبشرني ربي بابن، وبأني سأعيش أيامًا بعد ولادته وسأقوم بتربيته؟ فما هذا الوحي الغريب المفعم بالعجائب؟

أما قوله تعالى ﴿قال كذلك قال ربُّك هو عليَّ هيّنٌ﴾، فقد قال عنه المفسرون، خوفًا من المسيحيين، أن ﴿قال كذلك﴾ هو من كلام الملاك الذي بلّغ زكريا الخبر، أما ﴿قال ربك هو عليَّ هيّنٌ﴾ فالقائل فيه اللهُ تعالى (الجامع لأحكام القرآن). مع أنه لا حاجة لهذا الفرق ولا داعي لهذا التأويل، إذ توجد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة لانتشار الضمير حيث ينتقل الضمير من الخطاب إلى الغائب ومن الغائب إلى الحاضر. الحق أن ما يقوله الملاك إنما هو قول الله تعالى في الحقيقة، لأنه لا يقول شيئًا من عنده، بل يبلّغ كلام الله تعالى. فإذا كانت جملة ﴿قال كذلك﴾ من مقولة الملاك فإنما هي مقولة الله في الحقيقة إذ قالها نيابة عن الله تعالى، لا من عند نفسه.

الحق أن قوله تعالى ﴿قال كذلك قال ربُّك هو عليَّ هيّنٌ﴾ ينبهنا أن نعتبر الأمرين من الله تعالى، فإذا نُسب الكلام إلى الملاك فأيقِنوا أن منبع كلامه هو الله، وإذا نُسب الكلام إلى الله فأيقِنوا أنه تعالى قد تكلم مباشرة.

ثم قال الله تعالى ﴿وقد خلقتُك مِن قبل ولم تكُ شيئًا﴾. وأرى أن قوله تعالى ﴿خلقتُك﴾ لا يشير هنا إلى الخلق المادّيّ، إذ لا خصوصية لزكريا في هذا الخلق، وإلا لقال الله تعالى "وقد خلقتُ الكون كله من قبل ولم يك شيئًا". فما دام الله تعالى يوجه الخطاب هنا إلى زكريا خاصة، فثبت أن الحديث هنا لا يدور عن الخلق المادي، وإنما يشير في الواقع إلى أمر آخر، وهو – عندي – ما ذُكر في قوله تعالى ﴿لم نجعَلْ لـــه مِن قبل سميًّا﴾. فولادة ابن عند زكريا أولاً، ثم كون الابن يعيش ثانيًا، ثم كونه ابنًا غير عادي منقطع النظير في مجالات معينة ثالثًا كانت أمورًا محيرة حقًّا. فأجاب الله على الأمرين الأولين بقوله ﴿قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيّنٌ﴾. بينما أجاب على الأمر الثالث بقوله ﴿وقد خلقتُك من قبل ولم تك شيئًا﴾.. أي لم يكن لك يا زكريا من قبلُ شأن يُذكَر، ثم وهبنا لك العلوم والمعارف، كذلك نحن قادرون القدرة كلها على أن نمنح ابنك أيضًا هذه الحقائق والمعارف.

قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١١﴾

التفسير: لقد استخدم القرآن في مواضع كثيرة كلمة "الآية" بمعنى الأمر والحكم، ولذلك تُسمَّى جُمل القرآن آيات لكونها تحتوي على أوامر الله تعالى وأحكامه. فقول زكريا ﴿رَبِّ اجعَلْ لي آية﴾ يعني ربِّ مُرْني بشيء أقوم به.. أي لقد أنعمت عليّ بنعمة عظيمة أريد أن أشكرك عليها، فأرجوك أن تأمرني بأمر يكون علامة ظاهرة على شكري إياك، فأقوم به وأفرح بأني قد نفذّتُ أمر ربي.

يتضح من التوراة أن الله تعالى جعل لبني إسرائيل بعض العلامات بصدد الأنباء المستقبلية. فكانت بعضها علامات سماوية، وبعضها عبادات فقط. فقد ورد في التوراة أن الله تعالى عهِد إلى نوح عليه السلام وأولاده أنه لن يأتي بعد ذلك بطوفان عالمي في المستقبل، وقد جعل قوس قزح علامةً على ذلك. ونص العبارة كالآتي:

"وكلّم الله نوحًا وبنيه معه قائلاً: وها أنا مقيمٌ ميثاقي معكم ومع نسلكم مِن بعدكم، ومع كلّ ذوات الأنفس الحيّة التي معكم.. الطيور والبهائم وكلّ وحوش الأرض التي معكم مِن جميع الخارجين من الفُلْك حتى كلّ حيوان الأرض. أقيم ميثاقي معكم، فلا ينقرض كل ذي جسد أيضًا بمياه الطوفان، ولا يكون أيضًا طوفان ليخرّب الأرض. وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعُه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحيّة التي معكم إلى أجيال الدهر. وضعتُ قوسي في السحاب، فتكون علامةَ ميثاق بيني وبين الأرض. فيكون متى أنشر سحابًا على الأرض وتظهر القوسُ في السحاب أني أذكُر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفسٍ حيّة في كل جسد. فلا تكون أيضًا المياه طوفانًا لتُهلك كلَّ ذي جسد. فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقًا أبديًّا بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض. وقال الله لنوح: هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمتُه بيني وبين كل ذي جسد على الأرض" (التكوين ٩: ٨-١٧).

لا شك أن هذه الرواية مشوهة، إلا أنها تخبرنا بكل تأكيد بعادات اليهود وتقاليدهم، مبيّنةً أن الله تعالى إذا عهد إليهم عهدًا جعل على تحقيقه علامة ظاهرة من عنده. وأحيانًا جعل الله لذلك أمرًا كان على العباد القيام به. فقد ورد في التوراة: "قال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلُك مِن بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: يُختَن منكم كلُّ ذَكَرٍ. فتُختَنون في لحم غُرْلَتِكم. فيكون علامةَ عهدٍ بيني وبينكم." (التكوين ١٧: ٩- ١١).

كذلك جعل الله تعالى السبت علامةَ عهد لـــه حيث ورد: "وقَدِّسُوا سُبوتي فتكون علامةً بيني وبينكم لتعلَموا أني أنا الربُّ إلهُكم" (حزقيال ٢٠: ٢٠).

فاتضح من هذه الفقرات أن القيام ببعض الحسنات قد جُعل علامة ظاهرة على تحقق بعض الأنباء عند بني إسرائيل. وعلى هذا النحو نفسه دعا زكريا ربَّه فقال: ﴿ربِّ اجْعَلْ لي آيةً﴾.. أي مُرْني بشيء أعمله حتى يصبح وعدك أمرًا مفعولاً. ذلك أن العبد إذا وفى بوعده أنجز الله وعده حتمًا كما وعد تمامًا، ولم يبدّله بشكل آخر.

ثم تقول الآية: ﴿قال آيتك ألا تكلّم الناسَ ثلاثَ ليالٍ سويًّا﴾.. أي قال الله تعالى إني آمرك، كعلامة على شكرك لي، أن لا تكلّم الناسَ ثلاث ليال وأنت سليم معافى لا مرض بك ولا عيب، وذلك لكي تتمكن من التركيز على ذكر الله في هذه الأيام خاصة.

وجدير بالملاحظة هنا أن الله تعالى لا يقول "آيتك ألا تكلّم"، وإنما يقول ﴿آيتُك ألا تكلّم الناسَ﴾. ذلك أن الإنسان الحائز على الكمال الروحاني لا يكلّم الناس فحسب، بل يكلم اللهَ أيضًا. فترى كيف تكلَّمَ زكريا مع ربه كلامًا طويلاً إذ قال: ﴿رَبِّ إني وَهَنَ العظمُ مني واشتعلَ الرأسُ شَيبًا ولم أكنْ بدعائك رَبِّ شقيًّا * وإني خفتُ الموالِيَ مِن ورائي وكانت امرأتي عاقرًا فهَبْ لي مِن لدنك وليًّا * يرِثني ويرِث مِن آل يعقوبَ واجعَلْه رَبِّ رضيًّا﴾. فهذا الكلام كله لم يكن مع بشر، بل مع الله تعالى. ثم إن عباد الله الأخيار يتكلمون أحيانًا مع الملائكة أيضًا. فكلمة ﴿الناس﴾ الواردة هنا قد استثنت الكلام الذي يتم مع الله تعالى والملائكة، مؤكدة أن الله تعالى إنما أمر زكريا بصوم السكوت فقط لكي يركّز في هذه الأيام على ذكر الله تركيزًا خاصًّا، وليس المراد أن الله تعالى سلبه قوة النطق تمامًا. لو كان الأمر هكذا لقال الله تعالى "آيتك ألا تكلّم" بدلاً من أن يقول ﴿آيتك ألا تكلّم الناسَ﴾.. أي عليك أن تفرض على نفسك ألا تكلّم الناسَ في هذه الأيام رغم كونك سليمًا معافى قادرًا على الكلام.

لقد اشترط الله تعالى هنا إنجاز وعده بأمر من أوامره، والحكمة في ذلك أن العبد لو نفذ أمر الله تعالى فلا بد أن يتحقق ذلك الوعد ولا يلغى أبدًا.

وليكن معلومًا أن قوله تعالى ﴿ثلاث ليال﴾، لا يعني الليالي الثلاث فقط، بل يعني الليالي الثلاث مع نهارها. ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً﴾(الأعراف: ١٤٣)، أي ثلاثين ليلة مع نهارها.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

المحراب: الغرفة؛ أكرمُ مواضعِ البيت، ومنه سُمّي محراب المسجد وهو مقام الإمام؛ الموضعُ الذي ينفرد فيه الملِك (للتدبر في القضايا) فيتباعد عن الناس؛ القصرُ؛ مأوى الأسد (الأقرب).

فأوحى: أوحى إليه إيحاءً بعَثه؛ وأوحى إليه بكذا: ألهمَه به (الأقرب).

وفي الأساس: وحيتُ إليه وأوحيتُ: إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره. وفي المصباح: "وبعض العرب يقول: وحَيتُ إليه ووحَيت لـــه وأوحيت إليه وله (الأقرب).

إذًا فالوحي لا يعني الإشارة فقط، بل المراد منه إعلامك صاحبك بأمر ما في خفاء عن الآخرين.

بكرة: وهو من طلوع الفجر إلى الضحى (الأقرب).

عشيًّا: العشي: آخر النهار؛ وقيل: من صلاة المغرب إلى العتمة (الأقرب).

التفسير: لما أُمر زكريا بالسكوت ثلاث ليال مع نهارها ليذكر الله خلالها كثيرًا، قرّر العملَ بأمر الله تعالى. فخرج مِن غرفته أو محراب مسجده، وكلّم أصحابه بكلام خافت لم يُسمعه غيرهم. وهذا أيضًا يؤكد أنه لم يفقد القدرة على الكلام بتاتًا، بل يعني قوله تعالى ﴿فأوحى إليهم﴾ أنه تكلم معهم بحيث لم يسمع غيرهم.

وفي سورة آل عمران قال الله تعالى ﴿آيتُك ألا تكلّم الناسَ ثلاثةَ أيام إلا رَمْزًا﴾(الآية: ٤٢) بدلاً من ﴿أوحى إليهم﴾. وبما أن كلمة الرمز تعني الإشارة عمومًا، فقد فسرها المفسرون هنا بمعنى الإشارة متأثرين من بيان الإنجيل (تفسير ابن كثير). ولكن تذكر القواميس أن من معاني الرمز الإيماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين (الأقرب). والظاهر أن الإنسان لا يشير بالشفاه وإنما يتكلم بها كلامًا خافتًا. فالمراد من الإيماء بالشفاه أن يتكلم الإنسان بحيث لا يرتفع صوته، كقولنا لمن يكون بحنجرته التهاب: تكلّمْ بحيث لا يرتفع صوتك. بل يقول الثعالبي الإمام في اللغة عن لفظ الرمز: "هو مختص بالشفة"* ("فقهُ اللغة" للثعالبي: فصلٌ في تفصيل تحريكات مختلفة).. أي هو مختص بالكلام الخافت بالشفة دون الحنجرة. وهذا المعنى مطابق تمامًا لقوله تعالى ﴿فأوحى إليهم﴾.. بمعنى أن زكريا مُنع من الكلام بصوت عال، وأُمر بالكلام بالشفاه أي بصوت خافت. ذلك لأنه كان لزامًا عليه أن يبلّغ أصحابه القريبين بما أمره الله به، فقال لهم بصوت منخفض جدًّا: سوف أركّز على ذكر الله تعالى في الأيام الثلاثة التالية خاصة، فاذكروا الله أنتم أيضًا بكرة وعشيًّا. ولأن البكرة يطلق على الصباح إلى الظهر، ويطلق العشي على ما بعد زوال الشمس إلى الليل، فالمراد أنني سأقضي كل هذه الأيام في ذكر الله وعبادته، فعليكم أيضًا أن تركّزوا فيها على العبادة والذكر.

* لم نعثر على هذه العبارة في النسخة المتوفرة لدينا للمصدر المشار إليه. بيد أنه ورد فيه: "رَمَزَ بِشفته" ("فقهُ اللغة" للثعالبي: فصلٌ في تقسيم الإشارات) *(المترجم)*